الوزير فخر الدولة محمد بن جهير
٣٩٨-٤٨٣ هـ / ١٠٠٦-١٠٩٠ م

أ.د. نافع توفيق العبود
كلية الآداب – جامعة بغداد

سيرتـــه :

هو محمد بن محمد بن جهير التغلبي[١] ، ويكنى (أبو نصر) وأصله مـــن الموصل وبها ولد في سنة ٣٩٨ هـ[٢] .

ينحدر من أسرة يرقى نسبها إلى قبيلة تغلب العربية ، ويبـــدو أن أســرته كانت من الأسر المتواضعة . لم يصل إلينا شيئاً من أخبار أحد من أبنائـــها قبـــل اشتهار أمر أبنها أبي نصر محمد .. وواضح أن أسرته لم تكن ميسورة الحـــال ، فقد كان أبو نصر أبن جهير في ابتداء أمره فقيراً مدقعاً[٣] .

لم تقف حاله هذه من دون تثقيف نفسه بثقافة عصره ، فنال نصيباً وافـــراً من العلم والكتابة وآداب الملك ، حتى صار ذا رأي وعقـــل وحـــزم وتدبـــير[٤] ، وترامت به الأسباب وتقلبت به الأمور حتى مضى في رسالة إلى ملك الروم ، ثـــم تنقل في الخدمات فأتصل ببني المقلّد العقيليين وخدمهم[٥] .

لكن علاقته ساءت مع قريش بن بدران العقيلي ، وأضطر إلـــى مغـــادرة الموصل ، وقصد حلب وصار ناظر ديوانها ، ((ثم صرف عنه ، وانتقل إلى آمد ؛ وأقام بها بطّالاً)) [٦] وبعد ذلك تطلع إلى خدمة بني مروان[٧] ، فتوصّل إليـــهم ، إذ قدّره الأمير نصر الدولة أحمد بن مروان الكردي (صاحب ميافارقين وديار بكر)، فأتخذه وزيراً له ، فلم يزل على ذلك إلى أن توفـــي نصـــر الدولـــة فـــي ســـنة ٤٥٣هـــ[٨] ، وظلّ على أخلاصه لبني مروان أيام نظام الدين بن نصـــر الدولـــة الذي خلف أباه ، حيث رتّب له أمور دولته وأجراها على الأوضاع التي كانت في أيام أبيه[٩] .

وزارتــه الأولــى :

سمت همة أبي نصر محمد بن جهير إلى وزارة الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ) في ظروف كانت فيها أوضاع العراق ما زالت مضطربــة . بسبب انتقال السلطان من البويهيين إلى السلاجقة ، وما خلفته حركة أبي الحــارث البساسيري من آثار على الخلافة[١٠] ، هذا الى تمادي أمراء الأطراف وطمعهم في البلاد التي كانت تشكو سوء الأحوال وكثرة الفتن ، وعيث القبائل البدوية[١١] .

كان ابو نصر ابن جهير وهو بميافارقين ، يرقب الأحداث التــي اكتنفــت الخلافة ، فخطر له التوجه إلى بغداد ، فعمل على ذلك ، وصار يكــاتب الخليفــة القائم سراً ، ويتوصل اليه ، ويبذل له البذول ، حتى تم له ما أراد ، إذ أخرج القائم إليه ، طراد بن محمد الزينبي[١٢] ، فقرّر معه ما أراد تقريره ، ثم خرج لوداعــه ويتمم إلى بغداد ومعه ولداه أبو منصور وأبو القاسم[١٣] . وأرسل ابن مروان خلفه من يردّه فلم يلحق به[١٤] .

ورد ابن جهير بغداد من شهر ذي الحجة من سنة ٤٥٤ هــ ، وجرى لــه استقبال حافل ، إذ أخرج لتلقيه الكامل طراد نقيب العباسيين ، ورئيس العراقيــن، وجماعة الحاشية والخدم ، كما خرج الناس لاستقباله أيضــاً ، وأنــزل بــالحريم الطاهري[١٥] .. وخرج توقيع الخليفة الذي عبّر فيــه عــن الابتــهاج والســرور بمقدمه[١٦] .

وفي تلك الأثناء ، كان الخليفة القائم قد أعفى أبا الغنائم ابن دارست عــن الوزارة ، ولم تمض سوى ثمانية أيام من قدوم ابن جهير إلى بغداد ، حتى استدعاه القائم إليه ، وافاض عليه الخلع وجملة أشياء أخرى ، ثم أخرج له عهده بــالوزارة إليه .. ومن جاء في العهد : "فأن امير المؤمنين حيــن عــدم الكفــاة بحضرتــه المرتضين بخدمته ، وتحقق ما عليه محمد بن جهير من صحة الديــن وخلــوص المعتقد واليقين، وما نأوي إليه من الكفاية والعفاف والتنزه عن كل مــن الخــلال ويعاف ، وكملت فيه الأوصاف والأدوات التي جمعت بين كل سجية رضية وصفة

مرضية، استوجب أناته أفضل مراتب الخلفاء وأوجه منازل الأصفياء ، فقلده الوزارة وخصه من الطول ما يعلى مناره ، وعوّل عليه في الوساطة بينه وبين رعيته في العهود . ولقب فخر الدولة شرف الوزراء[١٧] .

هكذا قدر الخليفة كفاية ابن جهير ، فاعتقد فيه عدالته وخلوص معتقده ونزاهته وعفافه ورفعة مزاياه ، فاستوزره ليكون عوناً له في انهاض دولة الخلافة من كبوتها . وإعادة الهيبة إليها إثر المحن التي تعرضت لها ، وعوّل عليه أن يحسن سياسته في الرعية ، وأن يشدّ أزره في المهام الصعاب . فلا عجب إذا ما رأيناه وقد أفاض على وزيره الجديد لقب : (فخر الدولة شرف الوزراء) .

وما أن ذاع نبأ استيزار فخر الدولة محمد بن جهير ، حتى استبشرت الرعية خيراً ، وأثنى عليه بعض أعيان الشعراء ، فهذا الشاعر ابو منصور علي بن الحسن المعروف بـ (صَرّدُر) قد اطراه بقصيدة انفذها إليه من واسط ، ومما قال فيها[١٨] :

لجاجةُ قلب ما يضيقُ غرورها ... وحاجة نفس ليس يقضى سرورها
أعدت إلى جسم الوزارة روحه ... وما كان يُرجى بعثها ونشورها
أقامت زماناً عند غيرك طامثاً ... وهذا الزمانُ قرؤها وظهورها
من الحق أن يُحبى بها مستحقّها ... وينزعها مردودة مستعيرُها
إذا ملك الحسناء من ليس كفؤها ... أشار عليها باطلاق مشيرُها

استهل فخر الدولة ابن جهير وزارته – بمنافحته عن الخلافة ومدافعته الطامعين في ممتلكاتها ، فكانت ملوك وأمراء الأطراف المجاورين للخلافة ، ودعاهم إلى الدخول في طاعة الخليفة القائم ، فوفق الى استمالتهم بسبب ما كانت تربطهم من صداقة معه[١٩] ، ومن اولئك : مسلم بن قريش العقيلي ، ودبيس بن مزيد أمير المزيديين[٢٠] . ثم أبدى ابن جهير حرصاً على أموال الدولة ، فعمد إلى تقليل الإنفاق على الحواشي والأتباع اقتصاداً في النفقات[٢١] .

والواقع ان الوزير فخر الدولة ابن جهير ، أحسن السيرة في الرعية ، فأحبوه كثيراً ، وسنرى - بعد قليل - أظهارهم جوانب رائعة من مشاعرهم النبيلة إزاءه ، وتأثرهم الشديد عليه ، لمّا عزل عن الوزارة في سنة ٤٦٠ هـ ، بل أننا لنلمس غبطتهم بعودته إليها في السنة التالية ، وهذا ما لم يسبق أن جرى لأي وزير آخر حتى ذلك الزمان .

كان على الوزير فخر الدولة ابن جهير ، ان يلتفت إلى مداراة السلاجقة الذين تغلبوا على مقاليد الأمور تدريجياً ، وسعوا إلى تجريد الخليفة من سلطته الدنيوية ، لهذا لم يشأ الوزير المذكور إثارتهم ، بل أبدى سياسة متوازنة إزاء سلاطينهم ، فعندما وصل السلطان طغرلبك بغداد في المحرم من سنة ٤٥٥ هـ ، خرج الوزير ابن جهير لتلقيه بعد أن أستعفي الخليفة من ذلك فأعفي ، وأدى الوزير رسالة عن الخليفة وحمل الهدايا للسلطان[٢٢] .

ومع هذا الإلطاف الذي قوبل به السلطان السلجوقي الدخيل ، والذي أملاه الواقع يوم ذاك ، فأنه نزل عسكره في الجانب الغربي من بغداد - وأساؤوا التصرف مع الناس الآمنين ومدّوا أيديهم إلى الدور وارتكبوا المحظور[٢٣] ، من دون أن يكف سلطانهم أيديهم ، شأنه في هذا شأن أي أجنبي دخيل لأتهمه مصلحة البلاد والعباد ، والمؤسف ان الخليفة القائم ووزيره ابن جهير ، لم يكونا في موقف قوي، يمكنهما من معاقبة وقمع اولئك الأعاجم الذين اقترفوا ما اقترفوه .

وما دامت الخلافة قد وقعت تحت وطأة التسلط السلجوقي ، فما على الخليفة الا أن يبدي صبراً وتحمّلاً ، وهكذا كان ... فعندما توفي السلطان طغرلبك بالري في شهر رمضان سنة ٤٥٥ هـ ، جلس الوزير فخر الدولة للفراء في صحن السلام ببغداد حاضرة الخلافة[٢٤] .

ومن خلال تتبعنا لمواقف الوزير فخر الدولة من السلاجقة ، لمسنا ما يومئ الى معارضته لهم لأنه نظر إليهم نظرة كونهم الغرباء عن البلاد ، ففي شهر جمادي الآخرة من سنة ٤٥٦ هـ ، قدم رئيس العراقين أبو أحمد النهاوندي

وايتكين السليماني إلى بغداد ، وصار الأول منهما يعترض الناس ويمدّ يده في الأعمال ومن بينها أقطاع الوزير وأصحابه ، فعزّ ذلك على الخليفة القائم ، فأستدعاه إلى بيت النوبة وخاطبه الوزير ابن جهير وأغلظ له ، وكذا فعل باتيكين، فغادرا بغداد[٢٥] . ثم أن النهاوندي رئيس العراقين ، كتب إلى الخليفة القائم بالشكوى من ابن جهير ، وما قاله للخليفة :

((إن هذا (يعني الوزير فخر الدولة ابن جهير) قد نقل الدولة التركية إلى العربية .. وفعل في ذلك ما سار في الآفاق ، والسلطان غير مؤثر له)) [٢٦] .

ومن هنا نلمس الحس العربي واضحاً لدى الوزير ابن جهير الذي عول على العرب وسعى في قمع النفوذ السلجوقي عن الدولة وأبعاده لخطره ، وواضح أن نهجه المناوئ للسلاجقة الأتراك ، قد لقي قبولاً وأستحساناً من جانب الخليفة القائم ، الذي أخرج جوابه باطرائه لوزيره العربي والشكر له ، ووصف سياسته بتقريب العرب إبعاد الأتراك بقوله : ((قد كان له (الوزير) في ذلك الأمر المقام المحمود)) [٢٧] .

ومع ذلك فقد حرص الخليفة على إدامة حسن العلاقة بينه وبين السلطان ألب ارسلان ، ففي السنة المذكورة (٤٥٦هـ) سيّر الخليفة وفداً إلى السلطان يرأسه الوزير ابن جهير ، صحبة جملة من الأعيان وجماعة من رسل الأطراف وأمراء العرب وغيرهم .

فخر الدولة وملك الروم :

نود أن نلتفت إلى ناحية أخرى تتعلق بالعلاقات الخارجية مع الروم أيام وزارة فخر الدولة الأولى . فقد قدّر ملك الروم منزلة الوزير فخر الدولة في ظل الخلافة العباسية ، بأعتباره الموجه الخطير لسياسة الدولة بعد الخليفة .

ويبدو أن الهدوء ساد علاقة العرب بالروم في هذه الحقبة ، حتى أننا نرى ملك الروم قد سعى من جانبه إلى مكاتبة بغداد رغبة منه في استمرار تحسن العلاقة ، وجاء ذلك صراحة في كتاب ارسله في سنة ٤٥٧هـ إلى الوزير فخر

الدولة ، مشيداً به بشخصه ، ومستفسراً عن سبب أهماله مكاتبة ، وإلى القارئ الكريم ما جاء في الكتاب .

((لقد كثر تعجبنا أطال الله بقاء الوزير الخطير ... الأثير ، كيف رأى استعماله الرأي الصمت وأهمال المكاتبة طول هذا الزمان ، وما تحرك لتجديد العهد بنا بالمفاجأة والمخاطبة مع ما هو متجمل به من الأدب الزائد والعقل الراجح الفائض والحجاء المستوسق الطائل . لكنا وأن كان الوزير أدام الله كفايته لما قد احتقنه من المهمات ونيط به من التدبرات ، لم يتمكن من ما ذكرناه ، فنحن لم نتمكن من التعبر هذه المدة عن مكاتبته ، بل أصدرنا هذا الكتاب مستعملين خبره ، وجري الأمور بساحته)) [٢٨] .

فلما وقف الوزير فخر الدولة على هذا الكتاب ، بعث به مع كتاب آخر من عنده إلى السلطان ألب ارسلان .. ولعله أراد بذلك استطلاع رأي السلطان في الذي يقرره مع الخليفة أو معه ، بشأن الروم والموقف منهم خاصة أن ملكهم طلب تحسين العلاقة مع المسلمين . غير أننا لم نقف على موقف السلطان السلجوقي ألب أرسلان من المبادرة المذكورة .

في شهر ذي الحجة من سنة ٤٦٠ هـ ، أقدم الخليفة القائم بأمر الله على عزل فخر الدولة ابن جهير عن الوزارة ، فخرج توقيع الخليفة بهذا الشأن بمحضر قاضي القضاة أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد الدامغاني[٢٩] ، ويشتمل التوقيع على سبعة فصول[٣٠] تتضمن مؤاخذة الوزير ، من بينها أتهامه بعدم الوفاء بما أوفى ، واستدعائه لمسلم بن قريش العقيلي إلى حاضرة الخلافة أثر وفاة السلطان طغرلبك (ت ٤٥٥هـ) ، واستهانته ببعض التوقيعات وحرقه بعضها ، كذلك مكاتبته السلطان ألب ارسلان وطلبه الخلعة منه من دون استئذان الخليفة ، وأخطر تلك الاتهامات ، هو اتهامه بإغفاله مكاتبة عفيف الخادم - أخص خدم دار الخلافة الفاطميين .

وهكذا اتهم الوزير فخر الدولة باتهامات تكفل عزله ، مع أنه أجاب على ما ورد في الاتهامات التي وجهت إليه ، وكانت إجاباته تتضمن عدم تقصيره في الخدمة ، وأنه ما كاتب مسلم بن قريش الا حرصاً منه على الخلافة من الطامعين الذين ربما يتألبون على الخليفة ويتجرءون عليه عندما بلغهم نبأ وفاة طغرلبك وبرّر قصده من إهمال بعض التوقيعات بسبب حرصه على الخزانة ، وأوضح أن طلبه الخلعة من السلطان ألب ارسلان يعدّ أمراً يسيراً ، ونفى عن نفسه أيضاً علمه بمكاتبة الخادم عفيف للفاطميين ، وأبدى أنه يحلف على ذلك بكل ما يحلف به مسلم ...[٣١]

ومع أن الخليفة القائم لم يقبل من وزيره تبريراته ، وأطرح أجوبته جانباً، فأنه قرر عزله ، وخيّره في اختيار الجهة التي يرغب بقصدها ، أي أن عليه مغادرة بغداد .. علماً بأنه لم يقترف في واجباته خيانة أو تقصيراً أو اختلاساً أو غير ذلك مما يبرر اقصاءه على العادة التي جرت عليها الحال في عزل الكثير من وزراء بني العباس . ودليلنا على ما نذهب إليه ، هو ما ورد في توقيع أخرجه الخليفة إليه ونسخته[٣٢] .

((معلوم يا محمد بن جهير أنه لم يظهر لك خيانة في دولة ولا مال ولكن **(لكل أجل كتاب . يمحو الله ما يشاءُ ويثبتُ وعندهُ أمُّ الكتاب)** [٣٣])) . وأغلب ظننا أن يكون المنافسون والحسّاد والوشاة قد أوغروا صدر الخليفة القائم على وزيره فخر الدولة فعزله على النحو المتقدم .

وازاء موقف الخليفة المتشدد ، كان لابد أن يفارق فخر الدولة بغداد ، فقصد نور الدولة بن مزيد بالفلوجة[٣٤] ، وكان يوم مغادرته بغداد يوماً محزوناً ليس بالنسبة لأتباعه فحسب ، بل وللعامة أيضاً ، ذلك أنه أحبّهم وأحبّوه .

ونرى مناسباً أن نعرض في هذا الصدد إلى صورة الحال في الليلة التي غادر فيها بغداد ، فذكر أنه قصد بيت النوبة ووقف عند شباك المدورة ، وظن أن الخليفة وراء الشباك ، فبكى بكاء شديداً وقبّل الأرض عدة دفعات ، وقال : ((الله

بيني وبين من ثقّل قلبك عليّ يا أمير المؤمنين ، فأرحم شيبتي وأولادي وذلّي وموقفي ، وارع لحرمتي)) [٣٥] غير أنه لم يلق جواباً ، فنقل خطاه متثاقلاً ، ومعضّداً بين أثنين ، والعامة تحيط به ، وهي تبكي لبكائه ، وتدعو له ، فيردّ عليهم ويدعو لهم ويودعهم[٣٦] ... والجدير بالذكر أن أولاده وخواصه قد غادروا معه أيضاً بعد أن أذن لهم ببيع رحلهم ومتاعهم[٣٧] .

وزارته الثانية :

زادت الرغبات في الوزارة بعد عزل فخر الدولة ابن جهير ، فطلبها من لا يسلح لها ، واختلفت الآراء والأهواء حتى قرر الخليفة القائم أسنادها إلى أبي الحسن بن عبد الرحيم ، فاستدعاه من مطيراباذ[٣٨] واستوزره في سنة ٤٦١هـ[٣٩] .

لم يكن لأبن عبد الرحيم ماضٍ محمود لهذا ثار العوام وألقوا في الجامع الرقاع فيها اللعنة على من أشار به ومن يسعى له[٤٠] وقالوا أيضاً : ((لا طاقة لنا من ظلمه بورود الجحيم)) [٤١] . وكانوا يضطغنون عليه جملة أشياء أثاروها ضده، منها أنه كان مع أبي الحارث البساسيري[٤٢] ، وأنه أقام الدعوة لصاحب مصر (الفاطمي) فضلاً عن قديم فعله في المصادرات[٤٣] .

اقتنع الخليفة القائم بأقصاء ابن عبد الرحيم فعزله ، وصار يفكر طويلاً فيهن يستوزره ، حتى كاتبه نور الدولة دبيس بن مزيد في معنى ابن جهير ، وذكر للخليفة ((أنه خير وزير وظهير)) [٤٤] .

والجدير بالذكر هنا ان ابن جهير ، كان هو الآخر قد كاتب الخليفة وناشده العفو عنه ، وتوسط بينهما جماعة من الخواص إلى جانب دبيس ، حتى أسفر الأمر عن أجابة الخليفة القائم إعادته إلى الوزارة ، وأعفائه من مال بذله الوسطاء عنه مقداره خمسة عشر ألف دينار .. ثم بعث الخليفة أبا عبد الله المردوسي حاجب الباب مع خادمين آخرين من دار الخلافة ، لأستدعائه من الحلة المزيدية ، فأقبل أبن جهير صحبة هؤلاء ، فدخل بغداد في يوم الأربعاء ثاني صفر من سنة

٤٦١هـ[٤٥] ، وبقدومه عمّ الفرح والجذل أهل بغداد أحتفاءً بعودته ، ومن صور فرحهم الغامر ، صام بعضهم ، وتصدّق آخرون ، ومن طريف ما يروى أيضاً أن رجلاً سقّاءً ذبح بقرة كان يعمل عليها ويتقوّت منها وتصدّق بلحمها[٤٦] .

هكذا عبرت العامة عن غبطتهم بإعادة ابن جهير ، وكان ذلك تعبيراً كريماً حينما أحاطوا بركبهم حوله ، والخليفة يطلّ عليهم من المنظرة التي على الحلبة ، فلما وصل ابن جهير إلى باب النوبي[٤٧] ، نزل فقبل العتبة ثم دخل الديوان ، وأنتهى حضوره ، حيث خرج التوقيع بإعادته إلى الخدمة وجاء فيه : ((وقفّ على ما أنهيته وحصولك واستقرارك بمقر عزّ خدمتك من الديوان مشمولاً بعز الخدمة الشريفة ، قد أكمل الله لك بيمن بركتها كل بغية ، وأعادك إلى أفضل ما عهدته، وليس فيما جرى بقادح في موضعك فأكثر حمداً لله على ما أولاك)) [٤٨] .

وفي يوم الأربعاء ثالث ربيع الأول أي بعد شهر من قدوم فخر الدولة بغداد، جلس الخليفة القائم في قصر التاج ، فأُحضر الوزير وولداه (عميد الدولة وزعيم الرؤساء) إلى حضرته ، فقال للوزير : ((الحمد لله جامع الشمل بعد شتاته وواصل الحبل بعد ثباته)) [٤٩] ثم خلع عليه وعلى ولديه .

وفي يوم الجمعة خامس ربيع الأول ركب ابن جهير وولداه إلى جامع المدينة في موكب كبير ، فاستقبلتهم الرعية بالدعاء والسرور ، ولما أجتاز الموكب بالكرخ نثرت عليه الدنانير والدراهم والآس وشجر العود ، ورشوا طريقه بماء الورد[٥٠] .

وقد عبّر بعض الشعراء عن عواطفهم الجيّاشة إزاء عودة الوزير فخر الدولة إلى الوزارة ، ففاضت قوائحهم بمدحه والإطراء عليه ، وممن مدحه أبو الفضل صرّدر الشاعر بقوله في تلك المناسبة قصيدة نقتطف منها هذ الأبيات[٥١] :

قد رجع الحقُ إلى نصابـــه وأنت من دون الورى أولى بـــه
ما كنت الاّ السيف سلّته يـدٌ ثم أعادتـــه إلـــى قرابـــــه
هزّته حتى أبصرتـــه صارماً رؤيتـــه تغنيك عن ضرابـــــه
أكرم بها وزارة ما سلمـــت ما استودعـــت إلا إلى أربابـــه
مشوقة إليك منذ فارقتهـــا شوق أخي الشيب إلى شبابـــه
حاولها قومٌ ومن هذا الـــذي يخرج ليثاً خادماً من غابـــــه
يدبي أبو الأشبال من زاحمه في خيسه بظفـره ونابـــــه
ذلّ لفخر الدولة الصعب الذرى وعلّم الأنـــام من آدابـــــه

وممن مدحه أيضاً الشاعر أبو الرضا الفضل بن منصور الشريف الفـارقي الذي قال : (٥٢)

يا قاله الشعر قد نصحت لكـم ولستُ أدهى إلاّ من النُصـــح
صونوا القوافي فما أرى أحداً يعثر فيه الرجاء بالتّبحـــح
فأن شككتم فيما أقـول لكـــم فكذبوني بواحد سمـــــح
سوى الوزير الذي رياستـــه تعرك أذن الزمان بالملـــح

وهكذا عاد فخر الدولة ابن جهير إلى ممارسة مهامه الوزاريـة ، فنـهض بأعبائها خير نهوض . ولعل أهم ما يسجل له أيام وزارته الثانية للقائم ، أنه كـاتب صـاحب حلب محمود ابن الرؤقلّية ومقدمي دمشق وبعض عرب الشام ، يدعوهـم جميعاً إلى إقامة الخطبة للخليفة العباسي القائم بأمر الله وللسلطان السلجوقي ألـب أرسلان ، ووعدهم بالجميل والأمان ، فأجابوه إلى ما دعاهم إليه ، وفي شـهر ذي الحجة من سنة ٤٦٢ هـ ورد رسول من عند ابن الرؤقلية إلى بغـداد ، وتلقـاه الخدم والحجاب ، وقرأت كتبه في دار الخلافة وقد تضمنت الإعلام بإقامة الخطبة للخليفة العباسي في الشام ، وضربت البشائر على باب بيت النوبة(٥٣) .

أما بصدد علاقة الخلافة مع السلاجقة في هذه الفترة من استيزار ابن جهير، فقد كانت الظروف المحيطة بالخليفة القائم، تتطلب عدم تكدر العلاقة بالسلطان ووزيره نظام الملك، ويبدو أن فخر الدولة ابن جهير كان يقدر ذلك خير تقدير، فعمد إلى عدم إثارة السلاجقة، ويتضح ذلك جلياً من تردد الرسل بين الجانبين. ففي سنة ٤٦٢ هـ سُيّر عميد الدولة محمد (ابن فخر الدولة) رسولاً إلى السلطان ألب أرسلان، فلقيه ووزيره نظام الملك بالري، وهناك تزوّد عميد الدولة بأبنة نظام الملك، فصارت هذه المصاهرة خير ظهير لأبن جهير وسرته[٥٤]، ولما عاد عميد الدولة إلى بغداد، خلع الخليفة عليه، وجعل إليه الإنشاء والمطالعة، وأخرج له أيضاً توقيعاً بذلك من أنشاء ابن الموصلايا[٥٥]، فزادت منزلته علواً[٥٦].

ونعتقد أن سياسة فخر الدولة التي نهجها مع السلاجقة، كانت وراء إذعان السلطان ألب ارسلان لرغبة الخليفة في استبدال شحنة[٥٧] بغداد اتيكين السليماني الذي لم يوافق الخليفة عليه، إذ أستبدله السلطان بشحنة آخر يدعى سعد الدولة كوهرائين الذي وصل بغداد في ربيع الآخر سنة ٤٦٤ هـ، فأستقبله الوزير فخر الدولة وأوصله إلى الديوان لمقابلة الخليفة وتسليمه كتاباً من السلطان، وفي حضرة الخليفة، سأل كوهرائين الخلوة معه لمشافيته ببعض الأمور، أي من غير أن يشهد الوزير فخر الدولة ولكن الخليفة القائم أبى عليه فلم يجبه إلى ما سأله من إخراج الوزير[٥٨] تقديراً له، بل وربما لأخذ رأيه فيما قد يطرحه كوهرائين القادم من جهة السلطان.

في السنة نفسها (٤٦٤ هـ) وصل رسول من عند السلطان ألب أرسلان هو أبو العلاء محمد بن الحسين الوزير، وكان هذا قد حث السلطان على لزوم الطاعة للخليفة، فحباه الخليفة بالتكريم وأقطعه النصف من اقطاع الوزير ابن جهير[٥٩].

وظل الخليفة يبدي حرصه على توثيق عرى الصلة بالسلطان السلجوقي ، حتى أقدم على تزويج المقتدي (ولي العهد) بينت السلطان المنعوتة بسفري خاتون[٦٠] .

هكذا استمرت العلاقة حسنة بين الخلافة العباسية وسلطان السلاجقة ألب أرسلان ، حتى بلغت درجة المصاهرة التي نعتقدها أنها كانت لأغراض سياسية تحول دون تكدّر العلاقة بين الجانبين . والواقع أن العلاقة ظلت هكذا طيلة أيام ألب ارسلان الذي لقي مصرعه في بلاد ما وراء النهر في سنة ٤٦٥ هـ . فلما بلغ نبأ ذلك إلى بغداد ، جلس الوزير فخر الدولة للغراء به في صحن السلام[٦١] . وأنما فعل الوزير ذلك مجاملة للسلاجقة وإظهاراً لاستمرار العلاقة الحسنة معهم.

تسلم السلطنة بعد وفاة ألب ارسلان أبنه ملكشاه ، وفي شهر صفر من سنة ٤٦٦ هـ ، قدم الشحنة كوهرائين بغداد ، وأستقبله الخليفة القائم بأمر الله وسلّم إليه عهده المنشأ للسلطان بعد أن قرأ الوزير فخر الدولة ابن جهير أوله ، وكذلك سلمه الخليفة اللواء الذي عقده للسلطان[٦٢] .

ولكننا لمسنا في مستهل عهد السلطان الجديد ، تغيّر نية الوزير السلجوقي نظام الملك في الخدمة الشريفة للخلافة ، بسبب ما أوقعه الأعداء والحساد بينه وبين فخر الدولة وزير الخليفة ، والذي يسترعي الأنتباه هنا ، أن نظام الملك أرسل أبنه مؤيد الملك عبد الله إلى بغداد[٦٣] ، فلم يجر له الأستقبال المناسب ، بسبب غرق تعرضت له بغداد وقتذاك ، فخّر ذلك في نفسه ، وأبدى تأثره ، ولكن الخليفة بعث إليه من طيب خاطره ، وحملت الخلع إليه ، فقصد بيت النوبة حيث أستقبله الوزير فخر الدولة وأظهر له الاحتفاء بمقدمة ، ثم أنصرف مؤيد الملك إلى الدار التي بناها والده مع المدرسة النظامية ، ثم مضى الوزير إليه في اليوم التالي لزيارته[٦٤] ، وأنما فعل الوزير ذلك إرضاءً له وتجنباً لإغضاب والده نظام الملك، والذي قد ينعكس أثره على العلاقة بين الخلافة والسلاجقة في ظرف لم يتمكن

الخليفة ووزيره من الدخول في خلاف السلاجقة خاصة وزيرهم نظام الملك الموجّه الرئيس لسياسة سلاطينهم .

ونحن لا نلوم الوزير ابن جهير على ما أبداه من مرونة تجاه ابن نظام الملك ، لأنه كان يقدر الأمور خير تقدير ، فعمل لذلك على أسترضاء مؤيد الملك الذي يعدّ في نتيجته استرضاءً لوالده نظام الملك .

عندما أحسّ الخليفة القائم بأمر الله بدنو أجله ، أحضر ولده عدة الدين عبد الله (المقتدي بأمر الله) وأوصاه قائلاً :

((يا بنيّ قد استخدمت في أيامي ابن أيوب وأبن المسلمة وأبن دارست وأبن جهير ، فما رأيت أصلح للدولة من ابن جهير وولده فلا تقول عنهما)) [٦٥] .

ثم طلب القائم ثقاته ومنهم الوزير فخر الدولة ابن جهير ، وطراد بن محمد الزينبي نقيب النقباء ، والنقيب الطاهر بن محمد ، وقاضي القضاة أبو عبد الله الدامغاني وغيرهم من الأعيان والأماثل[٦٦] ، فأعلمهم بما قرره بأستخلاف ولده المقتدي ، وكان ذلك في التاسع من شعبان سنة ٤٦٧ هـ ، وماج الناس بالإرجاف، لأن الخليفة مفارق الدنيا عمّا قريب ، فأقدم فخر الدولة الوزير على التحوط وتدبير الأمور لتدارك الموقف ، فرتب الأتراك والهاشميين بالسلاح ، وأوعز إلى الشحنة بضرب الخيام عند دار الخلافة ... ثم فاضت روح القائم في ليلة الخميس الثالث عشر من شعبان ، فلحق الوزير وولده عميد الدولة محمد غمّ كبير حتى خرقا ثوبيهما تأسّياً على الخليفة الراحل[٦٧] .

لقد بذل الوزير فخر الدولة جهده في أخذ البيعة لولي العهد (المقتدي) توكيداً لأخلاصه للبيت العباسي ، ففي يوم الجمعة الرابع عشر من شعبان (سنة ٤٦٧ هـ) أحضر جملة الأعيان والأكابر ومؤيد الملك بن نظام الملك وأخذ البيعة للمقتدي بإشهادهم على ذلك[٦٨] .

لمّا ولي المقتدي الخلافة (٤٦٧-٤٨٧هـ) أقرّ فخر الدولة ابن جهير في الوزارة ، بناء على وصية والده له بهذا الشأن ، فضلاً عما أبداه فخر الدولة من أخذ البيعة له - كما أسلفنا - .

بادر فخر الدولة إلى إستحصال بيعة السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان للخليفة الجديد ، ولتحقيق هذه المهمة ، سيّر ابنه عميد الدولة في شهر رمضان ٤٦٧هـ إلى السلطان المذكور وأرسل معه من أنواع الهدايا الشيء الكثير[٦٩] ، وعاد عميد الدولة إلى بغداد في سنة ٤٦٨ هـ وقد حقق المهمة التي أوفد من أجلها ، فأستقبله الخليفة المقتدي وخصّه بإكرامه ولطفه[٧٠] .

واصل فخر الدولة ابن جهير تحمل تبعات مسؤولياته الوزارية بكل جدّ وهمة ، وليس بين ايدينا ما يدل على وقوع خلاف بينه وبين الخليفة المقتدي ، ولكن لما كانت سنة ٤٦٩ هـ توترت علاقة ابن جهير بالوزير السلجوقي نظام الملك ، وشاب الصفاء بينهما كدرٌ ، وسبب أنه في هذه السنة ورد بغداد الشيخ أبو نصر بن الاستاذ أبي القاسم القشيري حاجّاً ، وجلس للوعظ في المدرسة النظامية وأظهر شعار الأشعرية[٧١] . وشدّد على المبتدعة وقمعهم[٧٢] ، فثارت الفتنة من العامة . وقصدت الحنابلة النظامية وقتلوا جماعة . فعنوا الوزير نظام الملك سبب تلك الفتنة إلى بني جهير فحقد عليهم[٧٣] .

وتلت هذه الحادثة وفاة ابنة نظام الملك زوجة عميد الدولة ابن فخر الدولة، وذلك في سنة ٤٧٠ هـ ، فاتضحت بوفاتها عرى المعاصرة بين نظام الملك وبني جهير[٧٤] ، ثم تطور التباعد والخلاف اكثر في سنة ٤٧١ هـ حتى أوغر نظام الملك صدر السلطان على بني جهير ، وجاءت من السلطان رسالة مشتملة على كراهية الوزير فخر الدولة والمطالبة بعزله[٧٥] .

حمل هذه الرسالة كوهرائين الذي أنيطت له شحنكية بغداد ، فألحّ هذا على الخليفة المقتدي بتنفيذ قرار السلطان بعزل فخر الدولة ابن جهير ، ولكنه لم يلق أذناً صاغية من الخليفة ، بل أن الخليفة كتب جوابه إلى السلطان قائلاً : ((أنه

(فخر الدولة) ليس بوزير ، وأنما الوزير ولده عميد الدولة ، وقد قصد نحوكم .. ووالده ينوب عنه إلى أن يحضر)) [٧٦] .

ومع هذا فأن الشحنة كوهرائين أقام مع أصحاب عند باب الفردوس[٧٧] ، وظل مقيماً يوماً وليلة مطالباً بعزل الوزير ، وجرى خلال ذلك شيء خطير من التهدد والتوعّد ، حتى أقال كوهرائين : ((لابدّ من الوزير ولا مهلة في التأخير))[٧٨] .

وتحرّج الموقف حتى نقل الناس أموالهم من نهر معلى[٧٩] والحريم الطاهري إلى الجانب الغربي وباب المراتب[٨٠] . أما الوزير ابن جهير ، فأنه أعدّ للأمر عدّته ، فأحضر قوماً بالسلاح فباتوا يحرسون باب الديوان[٨١] .

وقد قدّر فخر الدولة خطورة الموقف وما قد يؤول إليه الأمر من محابهة السلاجقة وأعوانهم في الظرف الصعب الذي يكتنف الخلافة . وهي تئنّ تحت وطأة التسلط السلجوقي الدخيل . لذا أبدى رجاحة في العقل وحسن التصرف ، فآثر أعتزال الوزارة ، لما عرفه من إصرار ملكشاه ووزيره نظام الملك ومطالبتهما بصرفه[٨٢] ، بل ربما فعل ذلك تجنباً لإراقة الدماء في صراع قد يطول ولا تحمد نتيجته .

وهكذا إذن للوزير فخر الدولة أن يعتزل ويلزم منزله ، فأعتزل وأناب في الأعمال ولديه ابا القاسم وأبا البركات[٨٣] .

والجدير بالذكر أن عميد الدولة ابن الوزير كان قد سيّر من الديوان الى أصبهان أبان الأزمة التي حاقت بوالده وتسببت في أعتزاله الوزارة - وكانت غايته مقابلة نظام الملك وأستعطافه . كما أردف الديوان عميد الدولة بموفد آخر هو نقيب النقباء الذي قصد السلطان ملكشاه ونظام الملك لمحادثتهما بشأن فخر الدولة ابن جهير ، بل وأطلاعهما على ما قام به الشحنة كوهرائين من تصرّف قبيح[٨٤] .

وفق الموفدان في المهمة التي أوفدا من أجلها ، فتمكن عميد الدولة من أسترضاء نظام الملك وأستعطافه ، في حين أتى نقيب النقباء بكتابين من السلطان ونظام الملك ، ويبدو أن أحد الكتابين موجّه للشحنة كوهرائين ومما جاء فيه :

((إنك تعرضت بنواحي الديوان العزيز والوزير فخر الدولة ، فأخذت منهما ما يجب أن تعيده ، فلا تتعرض بما لم تؤمر به)) [٨٥] .

وتلطفاً من الوزير نظام الملك بفخر الدولة ، فأنه بعث إليه بفرسين وعشرين قطعة ثياب ، أظهاراً لرجوع المودة إلى حالها المعهود[٨٦] .

وبعد أن عاد عميد الدولة من عند نظام الملك ، وجد الخليفة المقتدي قد غيّر نيته عليه ، بسبب وشاية أبداها ضده بعض الفقهاء ، فأبعده الخليفة عن خدمته، فانكفأ إلى والده بباب العامة وأغلق الديوان وسمّرت أبوابه[٨٧] .

وفي جمادى الآخرة فتح الديوان ، ورتب الخليفة فيه الوزير أبا شجاع محمد بن الحسين نائباً فيه[٨٨] . ولكن هذا لم يكن كفوءاً وبدا عجزه في تسيير دفة الوزارة ، وضعف أمر الخليفة المقتدي ، وأستبدّ الشحنة كوهرائين فصار إليه الأمر والنهي ، حتى قال الشاعر أبن أطبارية[٨٩] .

من ذا أروم وأجتذيه لقد	عمّ البلاء وأشكل اللبسُ
المقتدي المسكين ليس له	عقلٌ ولا رأيٌ ولا جسٌ [٩٠]
هذا وكهرائين شحنته	كالكلب حب باردٌ نمس
وأبو شجاع في وزارته	كالخرس لا بل دون الخرس

هكذا أضطربت الأحوال ، وأختلت أمور الخلافة ، حتى لم يعد للخليفة رأي ولا معرفة بما يفعل ، وكوهرائين الدخيل يتخبط في التصاريف ، من غير أن يكون للوزير ابي شجاع حول ولا قوة ، وتنقصه الدراية والكفاءة .

أن عزل فخر الدولة ابن جهير ، قد ترك فراغاً كبيراً في الوزارة لتمكّنه منها ، لا بل ترك أيضاً أبعاد ولده عميد الدولة عنها مثل ذلك – حتى تنبّه نظام

الملك إلى ذلك الاختلال ، فطلب إعادة عميد الدولة إلى الخدمة واستيزاره ، فأستوزره الخليفة المقتدي في سنة ٤٧٢ هـ[٩١] .

ان استيزار عميد الدولة بن محمد بن جهير ، أعاد نوعاً من الأعتبار لأسرته (بني جهير) ومع ذلك ، فأن فخر الدولة ظل منزوياً في داره حتى أذن له في فتح بابه[٩٢] .

ومن أخباره - التي تعدّ ثانوية - يقاد الخليفة المقتدي له إلى أصبهان سنة ٤٧٤هـ بميمة خطبة ابنة السلطان منكشد للخليفة نفسه ، فحقق الميمة وعاد الى بغداد[٩٣] .

كذلك حضوره وولده عميد الدولة لوزير ، مجلس عزاء جمال الملك ابن نظام الملك الذي أقامه له أخوه مؤيد الملك ببغداد في سنة ٤٧٥هـ[٩٤] .

ابن جهير والسلاجقة بعد عزله :

ظلّ فخر الدولة ابن جهير مقيماً في بغداد . فلما كان شهر صفر من سنة ٤٧٦هـ عزل الخليفة المقتدي ولده عميد الدولة من الوزارة ، وكتب الخليفة بذلك إلى السلطان منكشاه يعلمه ويبرّر له فعله بقوله : ((بأن بني جهير لا طريق إلى إعادتهم واستخدامهم وألتمس أن يبعدوا .. ولا يؤوون ، وكان السبب في هذا الثقة بهم فصاروا متّهمين)) [٩٥] . والملاحظ أن الخليفة لم يذكر ولو سبباً واحداً لأتهامهم ومن ثم أبعادهم عن الخدمة . بل عن بغداد - على ما يبدو - .

وقد ذكر ابن الأثير أنه يوم عزل عميد الدولة ، وصل رسول من السلطان ونظام الملك يطلبان أن يُرسل إليهما بنو جهير ، فأذن لهم في ذلك ، فخرجوا بجميع أهلهم ونسائهم إلى السلطان[٩٦] ، فصادفوا منه ومن وزيره نظام الملك كل تقدير وإكرام[٩٧] .. قرّب السلطان فخر الدولة ابن جهير تقديراً عالياً ، لمكانته وخبرته وعلو سنّه ، ومن ثمّ عقد له على ديار بكر ، وخلع عليه الخلع - وأعطاه الكوسات[٩٨] وسير معه الجيوش لأنتزاع ديار بكر من بني مروان[٩٩] .

قصد فخر الدولة ديار بكر في سنة ٤٧٦ هـ ، ثم أمده السلطان بجيش أناط قيادته بأرتق بن أكسب في سنة ٤٧٧ هـ ، ولما علم نصر الدولة ابن مروان بقصد فخر الدولة لبلاده ، كتب إلى شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي يستمّده وداعياً إياه لنصرته على أن يسلّم إليه آمد ، فحلف كل منهما لصاحبه ، لما كان بينهما سابقاً من عداوة مستحكمة ، فاجتمعا على حرب فخر الدولة ، وسارا إلى أمد حيث يعسكر في مشارفها وقتئذ ، فلمّا رأى فخر الدولة ذلك مال إلى الصلح تجنباً لإراقة الدماء وقال : ((أكره أن يحلّ بالعرب مكروه وأنا سببه)) [١٠٠] .

غير أن التركمان الذين كانوا في جيشه خالفوا هواه ، وأحاطوا بالعرب ذات ليلة فأوقعوا بهم ، فتراجع شرف الدولة العقيلي إلى ناحية من نواحي آمد ، فأوعز فخر الدولة إلى الأمير ارتق بن أكسب أن يأخذ الطريق عليه ، ولكن شرف الدولة بذل مالاً لأرتق ، فمال عنه فعاد إدراجه إلى الرقّة[١٠١] .

استطاع فخر الدولة ان يستولي على ميّافارقين بعد أن أفلح في الأستيلاء على ديار بكر سنة ٤٧٨هـ . في حين استطاع أبنه أبو القاسم زعيم الرؤساء ان يستولي على مدينة آمد . وقد وقعت أموال بني مروان بيد ابن جهير الذي أزال ملكهم[١٠٢] .

بعد ذلك عاد فخر الدولة إلى ديار ربيعة متولياً عليها من جهة السلطان الذي كافأه لتغلبه على المروانيين .. ولم يكتف فخر الدولة بذلك ، بل أنه أستولى في سنة ٤٨٢ هـ على دفيين والموصل وسنجار والرحبة والخابور وديار ربيعة أجمع ، وخطب له على المنابر نيابة عن السلطان[١٠٣] .

وأخيراً حطّ رحاله في الموصل مسقط رأسه ، وأقام بها حتى وفاته في صفر سنة ٤٨٣ هـ ، ودفن في تل توبة قبالة الموصل[١٠٤] ، وقبره ثاوٍ هناك .

وهكذا أنتهت حياته الحافلة التي نوّه بها التاريخ وتناولناها في بحثنا هذا ..

الهوامـــش :

١ - الذهبي، العبر في خبر من غبر : ٣٠٤/٣ . الصفدي، الوافي بالوفيـــات : ١٢٢/١ . قال ابن خلكان : جهير بفتح الجيم وكسر الهاء وســكون اليــاء المثناة من تحتها وبعدها راء .. يقال رجل بيّن الجـــهارة أي ذو منظـــر ، ويقال أيضاً جهير الصوت بمعنى جهوري الصوت . (وفيـــات الأعيـــان : ١٣٤/٥) .

٢ - العماد الأصفهاني ، تأريخ دولة آل سلجوق - اختصار البنـــداوي : ٨٠ . ابن الأثير ، الكامل : ١٨٢/١٠ . ابن خلكان ، وفيات الأعيـــان : ١٣١/٥. الصفدي ، الوافي بالوفيات : ١٢٢/١ .

٣ - ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية : ٢٩٣ .

٤ - ينظر : أبن خلكان ، وفيـــات الأعيـــان : ١٢٧/٥ ، الذهبـــي ، العـــبر : ٣٠٤/٣. ابن تغري بردي ، النجوم الزاهـــرة : ١٠٣/٥ ، أبـــن العمـــاد الحنبلي، شذرات الذهب : ٣٦٩/٣ .

٥ - خاشع المعاضيدي ، دولة بني عقيل في الموصل : ١٥٨ .

٦ - أبن خلكان ، وفيات الأعيان : ١٢٧/٥ .

٧ - ينظر عنهم : محمود ياسين احمد التكريتي ، الأمارة المروانية فـــي ديـــار بكر والجزيرة ، رسالة ماجستير مطبوعة بالآلة الكاتبة - كليـــة الآداب - جامعة بغداد ، ١٩٧٠ .

٨ - أبن الأثير ، الكامل : ١٧/١٠ .

٩ - أبن خلكان ، وفيات الأعيان : ١٢٧/٥ .

١٠ - أبو الحارث ارسلان البساسيري ؛ قائد من قواد الترك ، أزداد نفوذه فـــي عهد الملك الرحيم البويهي ، وتغلب على الأمور ، مما حدا بالخليفة القـــائم

بالاستعانة عليه بالسلطان طغرليك السلجوقي الذي قله أخيراً في سنة ٤٥١هـ . وللتفاصيل عن حركته يراجع :

الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد : ٣٩٩/٩-٤٠٠ . العماد الأصفهاني ، تاريخ آل سلجوق : ١٨-٢٠ ابن الجوزي ، المنتظم : ٢١٢/٨ . الدكتور حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي : ١١/٤-١٧ .

١١ - عبد الكريم توفيق العبود - الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد : ٢٠ .

١٢ - تنظر ترجمته في :

ابن الجوزي ، المنتظم : ١٠٦/٩ . العماد الاصفهاني ، تاريخ آل سلجوق: ٢٥ ابن النجار ، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد : ٢٥٤-٢٥٥ . ابن كثير، البداية والنهاية : ٢٥٥/١٢ .

١٣ - العماد الأصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر - القسم العراقي : ٨٨/١-٨٩ . ابن خلكان . وفيات الأعيان : ١٢٧/٥ .

١٤ - العماد الأصفهاني : تاريخ آل سلجوق : ٢٥ . ابن خلكان ، وفيات الأعيان: ١٢٨/٥ .

١٥ - العماد الاصفهاني ، آل سلجوق : ٢٧ . سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان (نشر علي سويم) : ٢٤٩ . والحريم الطاهري : أعلى مدينة السلام بغداد في الجانب الغربي ، منسوب إلى طاهرين الحسين .. وكانت به منازل الطاهرين ، ومن لجأ أليه آمن . فلذلك سمي الحريم . ينظر : (ياقوت الحموي، معجم البلدان : ٢٥١/٢) .

١٦ - سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ٢٤٩ .

١٧ - المصدر نفسه : ٢٤٩-٢٥٠ .

١٨ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ١٢٩/٥ . الصفدي ، الوافي بالوفيات : ١٢٢/١-١٢٣ .

١٩ - ابن الطقطقي ، الفخري : ٢٤٤ .